نظرية النّحو الوَظيفي من السّمات إلى المقولات - قراءةٌ في نسقِ التَنْميط

ياسر أغا
باحث في الدكتوراه
المركز الجامعي صالحي أحمد
النعامة – الجزائر

ديباجة:

عرف البحث اللّساني تحوّلات نوعيّة كانت نتيجة الاهتمام بهذه الآلة المسؤولة عن التمظهرات اللّغوية؛ أي "اللّغة". ولهذا، يعدّ "السّؤال عن الكيفيّة الّتي استطاع بها الإنسان أن يطوّع جهازه اللّغوي ليجعله جهازاً مَرِناً نحو وظائف متعدّدة، سؤالاً إبستيمولوجياً بالأساس" . ومِن هُنا، كانت ضرورة بناء نماذج لسانيّة لرصد مُختلف الظواهر اللّغوية، إضافةً إلى رصد بعض المفاهيم والتصوّرات وكيفيّة بنائها ذِهنيّاً وعلاقة المقولات النّحويّة بها. ونجد مِن ضمن هذه النّماذج اللّسانية "نظريّة النّحو الوظيفي" الّتي ظهرت في الثلث الأخير مِن القرن الماضي، والّتي أرسى دعائمها اللّساني الهولندي "سيمون ديك"، وتمّت صياغتها ونقلها إلى العالم العربي بفضل جهود اللّساني المغربي "أحمد المتوكّل"، حيث اعتمدها مشروعاً له في تقديم بعض المقترحات لوصف العربية. وقد ظهر ذلك في نماذجه الّتي استحدثها مثل نحو الطّبقات القالبي، والنّموذج الموسّع، حيث حاولَ مِن خلالها إعطاء قراءة لسانية جديدة، على مستوى مِن العمق مُضيفاً تفسيراً لعديدٍ مِنَ قضايا اللّغة العربيّة منظوراً إليها مِن وِجهةٍ وظيفيّة.

أوّلا: النحو الوظيفي؛ مِنْ حلقة بْراغْ إلى سيمون دِيكْ

تتَموْقَع النّظريات النّحوية الوظيفية في الدّراسات اللّسانية الحديثة بدْءاً مِن مقولة الوِجهة الوظيفية لـ"ماتيسيوس" إلى نظرية النّحو الوظيفي لـ"سِمُون دك" *، حيث سعت هذه النظريات إلى ربط البِنْية التّركيبيّة بالوظيفة التّبليغيّة كبَوْتَقَةٍ للتّجديد والنّقد نحوَ رؤيةٍ جديدةٍ في التفكير في اللّغة. ويُمْكِنُ لنا فهمُ هذا المسار العلميّ ابتداءً مِن حلقة بْراغ الّتي أسّسها العالم التشيكي "فيلام ماتيسيوس" * سنة 1926 رُفقة بعض الألسنيّين مثل: هافرنك، وبولر، تينيير، بانفونيست، فندرياس، ومارتينيه، إضافةً إلى الرّوسيين تروبيتسكوي وجاكبسون، حيثُ قدّم ماتيسيوس منهجَ لسانيات بْراغ في صياغةٍ واضحة، مُبْرِزاً لِدعامَتَيْنِ أساسيتين تقومُ عليها لسانيات بْراغْ، وهُما: اختِيارُ السّانْكرُونْيا * الّتي تُعدّ الخيْط الرّابط بالنّسبة للّسانيات الوظيفيّة، إضافةً إلى العلاقات الّتي تُقيمها الأبْحاث اللّسانيّة مع الحقْل الاجتِماعيّ

للفنّ والإبْداع ، كما اقترحَ ماتيسيوس نموذجاً كونياً غير مؤسس مسبقاً على حقيقة فعلين وظيفيّيْنِ: فعل التسمية، وفعل بناء ملفوظات مركّبية. ويعود مفهوما الاسم والملفوظ إلى الوظيفة، وفيما يتعلّق بما ينتجه المتكلّمون فعلاً سيتحدّث ماتيسيوس عن الكلمة وعن الجملة.

وانطلاقاً مِن هذه العلاقات بين الاسم والملفوظ مِن جهة، والكلمة والجملة مِن جهة أخرى، يطرح ماتيسيوس مبادئ نحوٍ وظيفي؛ فإذا كانت المقولتان الوظيفيتان [التسمية، وإنتاج الملفوظات] كوْنيتيْنِ، فإنّ المظهر الصّوري للّغة [الكلمات وتركيب الجمل] مظهر خاص، حيث إنّ كلّ لغة تنجز أفعالاً وظيفية بطريقة خاصة . وتمثّلت أنشطة حلقة بْرَاغْ في تقديمها لأطروحاتٍ عرضَت مِن خلالِها برْنامَجَ بحثها اللّساني عَنْ بِنْيَةِ اللّغة، بوصفْها نسَقاً يتضمّن بُعْداً وظيفيّاً مُوَجّه نحوَ غايةٍ معيّنة، يسعى إلى رصْدِ مهامِ هذه الوظائف الّتي بفضْلِها تُحدّدُ بِنْيَةُ اللّغة، "ولا أقصدُ في هذا أنّ أعضاء مدْرسة براغ كانوا يرَوْنَ أنّ اللغة ككل تؤدي وظيفةً ما فحسب، فهذه بديهةٌ لم تكن لتميّزهم عنْ غيرهِم، لكنّي أقصدُ أنّهم حلّلوا اللّغةَ بهدف إبْرازِ الوظائف الّتي كانت مكوّناتها البنيوية المختلفة تؤدّيها في اسْتعمال اللّغة بأجمعها، وهذا ما ميّز مدرسة براغ تمييزاً حادّاً عن مُعاصريها، وهم الوصفيون الأمريكيونَ، كما ميّزتهم أيْضاً عن المدرسة التشومسكية الّتي تلَت الوصفيّين" . ويُمكِنُ لنا أنْ نتبيّن رؤى التّحليل الوظيفي لهذه المدرسة مِن خلال أطروحَتيْنِ بارزتيْن وهُما:

المنظور الوظيفي للجملة:

إنّ محاولة الإجابة عن سؤال "لماذا" مِن قِبَل الوظيفيّين جعلتهم ينظرون إلى اللّغة مُحاولين فهمَ الوظائف الّتي تؤديها أجزاؤها. ومِنْ ضمن هذه المحاولات، نجد منظور الجملة الوظيفي الّذي قام ماتيسيوس بتطويره، وتطبيقه على اللّغة التشيكيّة أثناء استعماله منهجاً لتحليل الجملة حسب مضمونها الإخْباري، في بحثه عن علاقة الإسناد وما تؤديه هذه العلاقة في توْجيه المكوّنات البينوية حسب التّركيبات الّتي تتألف منها الجملة والاحْتمالات الّتي يمكنُ أنّ تتحقّق وِفق هذه العلاقة الإسْنادية. وقد عبّر ماتيسيوس عن أفكاره في شكل ثنائيات تقوم عليها مكوّنات الجملة في ترتيبها المفرداتي. ويمكن النّظر في هذا الإطار إلى تركيب مكوّنات الجملة على أساس أنّ "[الموضوع] يَرِدُ أوّلاً ثمّ يليهِ [الخبرُ] ثانياً، أمّا إذا أردْنا التّوكيدَ على [الخبر]، فنقوم بعملية التّقديمِ والتأخير وبالنّسبة للّغات الّتي يكونُ لترتيبِ المفرداتِ فيها وظيفيةٌ نحويةٌ للتّمييز بيْنَ الفاعل والمفعول به، فإنّ الترتيبَ المفرداتي الّذي يتطلّبه منظور الجملة الوظيفي، يكونُ باستعمال أساليب تعبيريّة نحوية مختلفة، كصيغةِ المعلوم وصيغةِ المجهول في الفرنسية والإنجليزيّة" .

التّحليل الفونولوجي و المورفولوجي *:

كانَ للوظيفيّين آراء في الدّراسةِ الصّوتيّة، تجسّدت رؤيتهم مِن خلالِ بحثهم ومعالجتهم للقِطْعة الصّوتية، وما تؤديهِ مِن وظائفَ داخل تركيبٍ لغويّ معيّن تتحدّد مهامه وفْق عناصره الدّالة في نسقها

التّركيبيّ، حيثُ توصّل "تْرُوبيتسكويْ" إلى وضْعِ نظامٍ متطوّر للغاية، وهو التّصنيف الفنولوجي [pchonological typology]، الّذي يُمكّن الباحثينَ مِنْ معرفة النظام الصّوتي لأيّ لغةٍ مِن لُغاتِ العالم" .
إضافةً إلى رؤية تروبيتسكوي، نجد "ياكوبسون" الّذي اهتم بتحليل الفونيمات إلى سماتِها المكوّنة بدلاً من اهتمامه بتوزيعها، حيث تمثّل منهجه في علم الأصوات الوظيفي في فكرته الّتي تقول إنّ هناكَ نظاماً نفْسِيّاً بسيطاً نسبيّاً و منتظماً، و كُلِّياً مِن الأصوات تحتَ الخِضَم الفوضوي الّذي يضمّ شتّى أنواع الأصوات الّتي يلحظها عالم الأصوات . كما قُدِّمت آراء حول بعض المفاهيم الفونولوجيّة كالفونيم والتّضاد الفنولوجي، والسّمات التميزيّة الّتي تحقق بفضلها الأصوات وحدات وظيفية *. أمّا فيما يخص التّحليل المورفولوجي، فنلاحظه مِن خلال مفهوم التّقطيع المزدوَج الّذي أتى به "أندريه مارتيني" كوْنُ هذا التّقطيع ميزةً تباين الأنظمة اللّسانية البشرية عنِ الأنظمة التّواصلية الأخرى كلغة الحيوان مثلاً، حيث ينصّ هذا التّقطيع على أنّ تحليل الوحدات اللّغوية يتمّ على مستوى أوّلي يؤول إلى الكلمات الدّالة ذات المعنى المعجمي ومستوى التّقطيع الثّانوي الّذي ينطلق مِن هذا المستوى الإفرادي، حيثُ يقوم بتجزيء هذه الكلمات إلى أصغر الوحدات غير الدّالة ذات المحتوى الصّوتي .

بعدَ هذه الصّياغة المبدئية والأطروحات الألسنيّة الّتي قدّمتها مدرسة براغْ في دراستها الوظيفيةّ مجموع البنى الّتي تشكّل دراسةً علميّة للّسانِ البشري، ساهمت بشكل مباشر وبدورٍ فعّال في بروز موجّهات وظيفيّة *، مثل نظريّة فيرث السّياقية في عرضه للمكوّن الاجتماعي والعلاقات الّتي تحكمه، وكذا تحليله اللّغوي لبعض المستويات اللّغوية والمعطيات الصوتية. ومِن هذه الموجّهاتِ أيضاً "النّحو النّسقي" لهاليداي الّتي يقومُ مقترحها على ثلاثة مفاهيم أساسيّة: "الوظيفة"، "النسق"، "البنية"، حيث يرى هذا النّموذج أنّ اللّغة: نسقُ احتمالات في بعدها الأمثولي * تتيحُ للّغة سيرورة اجتماعيّة تجعلها تتكيّف مع مختلف البِنْيات اللّغوية. ثمّ بعد ذلك نظرية "التّركيب الوظيفي" * النّحو الّذي اقترحه منذ عشر سنوات فانْ فالين، وفولي والّذي يطلق عليه هذان اللّغويان أحياناً نحو "الأدوار والإحالة"، حيث سعى هذا الأخير إلى رصد البنية التّداولية المنظمَّة على أساس الأدوار الخطابية الّتي تحملها مكوّنات الجملة . ثمّ تأتي بعد ذلك نظرية "النّحو الوظيفي" لسيمون ديكْ، حيث قدّم الصّياغة الأوّلية للنّحو الوظيفي في كتابه الّذي نُشِرَ سنة 1978، اقترح مِن خلالِه خطاطةً عامّة لتنظيمِ مكوّناتِه، واعتمدَ في صياغة نموذجه مجموعةً مِن المبادئ تمَّ على أساسِها اشتقاقُ الجملة عبر بنيات ثلاث "البنية الحملية" الممثّل فيها للخصائص الدّلاليّة و"البنية الوظيفية" الممثل فيها للخصائص الوظيفية و"البنية المكوّنية" الممثّل فيها للخصائص الصرفية - التركيبيّة . كما تمّ وفقَ هذه المبادئ التي استصاغها بِناء البنيات الثلاث عن طريق تطبيقِ ثلاثة أنساقٍ من القواعد: "قواعد الأساس" و" قواعد إسنادُ الوظائف التركيبيّة والتداوليّة " و"قواعِدُ التّعبير" .
وقد رأى أحمد المتوكّل أنّ النّحو الوظيفي الّذي اقترحه سيمون ديك "هو النّظرية الوظيفيّة التّداولية الأكثر استجابةً لشروط التّنظير مِن جهة، ولمقتضيات النّمذجة من جهة أخرى، كما يمتاز النّحو الوظيفي

على غيره مِن النّظريات التّداولية بنوعية مصادره؛ فهو محاولة لصهر بعض من مقترحات نظريات لغوية [النّحو العلاقي] [relational grammar] نحو الأحوال [case grammar] الوظيفة [functionalism] ونظريات فلسفية؛ "نظرية الأفعال اللّغوية" [speeh acts theory /خاصةً] أثبتت قيمتها في نموذج صوري مصوّغ حسب مقتضيات النّمذجة في التنظير اللّساني" .

ثانيا: صياغة النّظرية *عند أحمد المتوكّل

انتقلت نظريّة النّحو الوظيفي مِن مسقط رأسها "جامعة أمستردام" إلى أقطار أخرى بفضل اغتنائها النّظري، الّذي انطلقَ مِن فكرة أنّ مقاربة خصائص العبارات اللّغوية، باعتبار وظائفها الدّلالية والتركيبيّة، وبعض المفاهيم التّداولية كالقوّة الإنجازية وغيْرها تتحقّق على أساس المقولات الشّجرية كالمركب الاسمي، والمركب الفعلي الّذي لا وُرودَ له إلاّ في بعض اللّغات. ويظهر ذلك مِن خلالِ مقاربة البِنْيات التّحتية للعبارة اللّغوية، حيثُ تحقّق مجموعاتها القاعديّة في بِنْيات وظيفيّة سطحيّة مُرَكّبة، يتمّ تطبيقها على لغاتٍ متباينة النّمط، لتنتقل هذه المقاربة العِلاقية في مستواها الثاني إلى نظرية وظيفيّة قائمة الذّات . وكانَ انتقالُ نظريّة النّحو الوظيفي إلى العالم العربي وفي المغرب خصوصاً، بفضل الصّياغة اللّسانية لهذا المنْحى الوظيفي الّتي قامَ بها أحمد المتوكّل في السّنوات الأولى مِن الثّمانينات؛ فلم يكُن نقل النّظرية نقلاً مجرّداً وإنّما كانَ نقلاً مرَّ بمراحِل متدرّجة :

1/ مرحلة الاسْتِنْبات: حيث أخذت نظرية النّحو الوظيفي حين نُقِلت إلى المغرب، مكانها بيْنَ الاتجاهات اللّسانية الّتي كانت سائدة آنذاك، وعلى رأسِها الاتجاهُ البِنْيوي والاتّجاه التّوليدي التّحويلي، إضافةً إلى الدّرس اللّغوي العربي القديم نحوِه وبلاغته.

2/ مرحلة التأصيلْ: حيث تمّ ربط نظرية النّحو الوظيفي بالفكر اللّغوي القديم في ضوْء مقاربةٍ على أساس أنّ الفِكر اللّغوي القديم تاريخٌ يُرجع إليه في سبيل تأصيل ما اكتسب مِن هذه المعارف ومرجع نستطيعُ مِن خلالِه تقديمَ حُجّة تسوقُ لنا الدّعم، أثناء تحليل ظواهر نحوية أو بلاغية، ومصدراً كذلك في عدّه مرحلة يتمّ توظيفها لاسْتِثمار بعض المفاهيم كلّما دعت الضّرورة إلى ذلك.

3/ مرحلة الإسْهامِ و التّطوير: حيث شرعِ اللّسانيون الوظيفيّون المغاربة تحديداً في الإسهام في تطويرِ نظرية النّحو الوظيفي نفسها؛ فابتدَع المتوكّل نموذج نحو الطّبقات القالبي، ثمّ أضافَ نموذج نحو الخطاب الوظيفي المُوَسّع، بالإضافة إلى إسهاماتِ عددٍ مِن الباحثين الآخرين في إضافة مكوّنات إلى نماذج مِن النّظرية، كما فعل البوشيخي حينما أضافَ المكوّن التخيلي إلى مكوّنات نموذج مستعملي اللّغة الطبيعيّة، في إطارِ الدّفاع عن أطروحة أنّ الملكة الإبداعية "مَلَكَةٌ مِن ملكات القدرة التّواصليّة العامّة الّتي يتمّ تفعيلها درجاتٍ متفاوتة بيْن مستعملي اللّغة الطّبيعية" . وتسنّى للمنحى الوظيفي أن يأخذ محلّه في البحث اللّساني المغْربي إلى جانب مكوّناته الأخرى. وقد تمّ ذلك عن أربع طُرقٍ رئيسة، هي: التدريس، والبحث الأكاديمي، والنّشر، وعقد ندوات دَوْلِيّة داخلَ المغرب نفسه .

وقد حاول المتوكّل مِن خلال تأسيسِه لنحوٍ وظيفي للّغة العربية أنْ يُحرِزَ هدفيْن اثنين، وهما:

1- إغناء لسانيات اللّغة العربِية، وذلك بتقديمِ أوصافٍ وظيفيّة لظواهر يعدّها وفق تصوّره مركزيّة، بالنّسبة لِدَلاليات وتركيبيات وتداوليّات هذه اللّغة.

2- كذا تطعيمِ النّحو الوظيفي كلّما مسّت الحاجة إلى ذلك بمفاهيمَ يقتضيها الوصف الكافي لهذه الظاهرة أو تلك .

مفهوم نظريّة النّحو الوظيفي:

نظرية النّحو الوظيفي "هي نظرية لسانية تعدّ اللّغة وسيلةً للتّواصل الاجتماعي، أي نسقاً رمزياً يؤدّي مجموعةً مِن الوظائف أهمّها وظيفة التّواصل، وهي نظريةٌ للتركيب والدّلالة منظوراً إليهما مِن وِجهة نظر تداوليّة تسعى إلى وصفِ وتفسير خصائص الخِطاب، باعتبار بُعديه المقالي والمقامي" . ويميّز أحمد المتوكّل بيْنَ تيّاريْنِ "تيّارٌ صوري" يقف في مقاربته للّغات الطّبيعية عِنْدَ بِنْيتها ولا يكادُ يتعدّاها، و"تيّارٌ وظيفيّ" يسعى إلى وصف بِنْية اللّغات الطّبيعية عبرَ ربطها بما تؤدّيه هذه اللّغات مِن وظائف داخل المجتمعات البشريّة. وهذا التميز بيْن التّياريْن [صوري / وظيفي] له مِن الوضوح والورود إبستيمولوجيا تجعله مِن أنسب التّنميطات للدّرس اللّساني الحديث . وهنا، تكمُن مهامُ اللّساني المشتغل بهذا النّموذج الوظيفي، حيث يسعى إلى بناء نسقين مِن القواعِد؛ نسق القواعد التّداولية والمقصود به الجوانب الوظيفيّة الّتي تحكمُ التّفاعل الكلامي باعتبارِه نشاطاً تعاوُنياً مُبَنْيَناً، إضافةً إلى الجوانِب الصّورية وهو نسق القواعد الدّلالية والتّركيبية والصّوتية الّتي تحكم العبارة اللّغوية المستعملة بصفتها أدوات لذلك النّشاط ، لأنّه "مِن المعلوم أنّ التنظير في اللّسانيات كما غيرها مِن العلوم يستلزم عدم التوقّف عند مستوى الرّصد، والوصف المحض للوقائع موضوع الدّرس ومجاوزته إلى مستوى أعلى، مستوى تفسير هذه الوقائع" .

1- المبادئ العامّة لنظرية النّحو الوظيفي:

ترتكزُ المقاربة الوظيفيّة، شأنها شأنُ كلّ نظرية لسانيّة، على مبادئ أساسيّة تشكّل مرتكزاً للبحث. وقد تمّت صياغة المبادئ العامّة الّتي تقومُ عليها نظرية النّحو الوظيفي في عشرة مبادئ:

مقاربة اللّغة تقوم على أساس أنّها أداةٌ للتّواصل داخل المجتمعات البشرية.

وظيفة اللّغة الأساس هي وظيفة التّواصل تتفرّع عنها وظائف أخرى "تعبيرية إقناعية... الخ".

القدرة الّتي يكتسبها مستعمل اللّغة الطبيعية قدرة تواصلية عامة تشمل كل المعارف اللّغوية والخطابية وغيرها، الّتي تمكنه مِن إنتاج أي خطاب وفهمه وتحويله، إمّا ترجمةً أو تفسيراً، أو شرحاً أو تأويلاً. تحكم الوظيفة بِنْيَة اللّغة عامة وبنية ما يمكن أن ينتج داخلها مِن أنماط خطابية سواء في التّزامن أو في التّطور .

ثالثا: الوظيفيّة وأطروحةُ التَنْمِيط

مِنَ المرامي الّتي تسعى نظريّة النّحو الوظيفي إلى تحقيقها نجِدُ "أطروحةُ التّنميط" استِكْمالاً لِمُتطلّبات مِعْيارِ الكفاية النمطيّة الّذي فصّلنا فيه بالحديثِ آنِفاً وذلكَ استشْرافاً لإحرازِ الهدف الأوّل مِن خلالِ بناءِ

نحوٍ وظيفيٍّ للّغة العربيّة، عبْرَ رصدِ ظواهِرها في التّزامُنِ وفي التطوّر، مِنْ منظورِ تَبَعيّة البِنْيَة للوظيفة، مقارِناً إيّاها باللّغاتِ الّتي تشترِك معَها في المستوى التنميطي، واللّغات المنتَمِية إلى أنْماطٍ مُغايِرة، لأن "الدّراسةَ التَنْميطيّةَ لا تكونُ ذات نفْعٍ إلاّ إذا أطّرَتْها مجموعَة مِنَ الفرضيات النّظريّة ولا تكون النّظريّة اللّسانِية في المقابِل ذات جدوى إلاّ إذا كشفَت عَنْ مبادئَ وقواعِد ذات انطباقية واسعة النّطاق" . وقد حاول أحمد المتوكّل أن يُثْبِتَ "أنّ اختلافَ أنماطِ اللّغاتِ آيلٌ إلى مبدأ التغليب، الّذي يحكم الاجتزاء الّذي تقومُ به اللّغات داخل بنية الخطاب النّموذجيّة، إضافةً إلى أنّ مجموعةً مِن مظاهِر التحوّل الحاصل داخِلَ النّمط نفسه، يُمكن أن تُرجعَ إلى مبدأ الانتقال، الّذي يحكم ظاهرةَ تسرّب عناصر هذه البِنْية، إمّا محلِياً أو عبر الطّبقات أو عبر المجالاتِ أو عبرَ القوالب، والّذي يُمكن أن يؤدّي إلى التحوّل مِن نمطٍ لغويّ إلى نمطٍ لغويّ آخرَ" . وممّا يجبُ الإشارةُ إليه والملاحظُ على هذا المشروع الوظيفي مِن خلال نماذِجه، ومِن خلال استقرائنا لفصولِ "التَنْميط" – كمطمَحٍ تسعى نظرية النّحو الوظيفي إلى بلوغِه قصدَ البَرْهنة على أنّه لا تعارُضَ بيْنَ الكُلِيَّةِ والنمطيّة، وإنّما الضّروريّ هُوَ بِناءُ نحوٍ كلّي وظيفي، يقف موقِفاً وسطاً بينَ الكليّة والنمطيّة – تبيّن لنا أنّه انطلقَ مِن محاوِر البِنْية السُّلاليّة للتطوّر اللّغوي، مِن وجهةٍ مقارنِة يروم التطوّر الحاصل للدّراسات التاريخية المقارنة، وينطلق في الآنِ نفسِه مِن القصور التَرَصُّدِي الّذي عجزت عنه هذه الدّراسات التي لم تَحْضَ جميعها مِن إحداثِ نقلةٍ نوعيّةٍ في دراسة التَنْميط والتطوّر، في مستوياتِ اللّغة بمختلف فصائلها.

وانطلاقاً مِن فكرة سِيمُون دِكْ فيما يخصّ الكِفاية النمطيّة، على كلّ نظريةٍ لسانيّة أن تطْمَح إلى إحرازِ أمْرَيْن متلازِمَيْن، هُما: أوّلاً: وضعُ أنحاء لكلّ أنماطِ اللّغات، وثانِياً وصفُ وتفسير ما يؤالف وما يُخالِف بينها، وهو الجديدُ بالنّسبة لنظرية النّحو الوظيفي حيث سعى اللّغويون الوظيفيون، إلى وصف وتفسير خصائص اللّغاتِ وتَنْميطِها في إطارٍ نظريّ محدّد المبادئ والمنهج مخالفينَ في ذلك اتّجاه "اللّسانيات النمطيّة" الّتي تباشِرُ دراسة اللّغات وتصنيفها، بطريقة استقرائيّة مُفتَقِرةً إلى الخلفية التنظيريّة .

التَنْميـط: مفهومُه وَمعاييره:

1-1- مفهومُه:

يُقصد بالتَنْميط في نظريّة النّحو الوظيفي اتّخاذُ معاييرَ بِنْيَويّة وتداوليّة تتقاسمُ مجموعةً مِن الخصائص التّركيبيّة، وتشتركُ في تقسيمٍ سُلاليّ مُعيّن [مُبتدئية / فاعليّة]، مّما يجعلها في الأخير تنتمي إلى نمَطٍ واحِدٍ مِن اللّغات الّتي تقومُ بانتقاء مُمَاثل داخل نموذج مستعملي اللّغة. ولأجل تنميط وظيفيّ أكْفَى يسْتَوْجِبُ تجميعُ عددٍ مِن الشّروطِ رسمتها نظريّة النّحو الوظيفيّ، وذلك ليتشكّل إطاراً نظريّاً عامّاً جيّداً لتَنْميطِ اللّغاتِ و تطوّرها . ولعلّ مِن أهمّ هذه الشّروط نجِدُ توحيد المقاربة، حيثُ يُقصَدُ به في منطق التَنْظير واستلزاماته أن يكونَ هناكَ تعميم في نفس المقاربة الّتي تجمعُ الحقول في إطارٍ نظريّ واحد، مِن

نفس المبادئ وبواسطة جهازٍ واصِف عام واحِد، يُحرزُ شقَّيْنِ اثْنَيْنِ "شقُّ احْترِاز"، و"شقّ اقتضاء". أمّا الاحتراز فمن أن تتعدّد الأجهزة الواصفة، داخل النّظريّة نفسها، بتعدّد الحقول؛ فيكون للوصف اللّغوي جهازٌ، وأن تُرصد للحقول الأخرى أجهِزةٌ تخصّ كلّ حقلٍ بِعَيْنِه. وأمّا الاقتِضاء، فأن تَسْعى النّظريّة بدْءاً في صياغة جهازِها الواصِف بِما يكْفل له الاضْطِلاعُ، بكلّ الحقول الّتي ترسمها هدفاً لها أو أن تعدّل على الأقل الجِهاز الأصلي، وخصوصيّة الحقل أو الحقول المضافة، إضافةً إلى الشّرط الأوّل "توحيد المقاربة". اعتُمِد أيضاً شرطٌ ثانٍ وهُوَ اعتماد "نحو كُلّي". ذلك أنّ النّظرية الّتي تُحدّد الكِفاية النّمطيّة على أساس أنّها قُدرتان؛ قدرةٌ على وضع نحوٍ لأيّ نمط مِن اللّغات، وقدرةٌ على تحديد ما بيْنَ اللّغات مِن جوامِع وفروق، تستلزِمُ ضرورة اعتماد نحو كلّي يُمَكّنها مِن بلوغ هذَيْنِ الهدفَيْنِ. وجديرٌ بالتذكير كذلك مِن بابِ الاحتراز أنَّ النّحوَ الكلّي المعتَمَد في نظريّة النّحو الوظيفي يجبُ أن تطبعه سِمَتان؛ إحداهُما أنْ ترتبِطَ بِنْيَتُه ومبادِئه بوظيفة التّواصل، وأن تعكس بقدر معقول عملية التواصل إنتاجاً وفَهْماً، والسِّمةُ الثّانية هِي أنْ تُستخلص مبادئه وبنيته العامّة مِن دراسة أكبر عددٍ مِن الأنماطِ اللّغوية، لا مِن لغةٍ واحدة، أو نمَطٍ لغويّ واحِد تُسْقَطُ خصائِصه على باقي اللّغات.

1-2 - معاييرُه:

تعتمِدُ نظريّة النّحو الوظيفي معاييرَ مُعتمدة، تقترحها لعمليّة التّنميط اللّغوي، وهي: الرّتبة، والتّغليبُ، والانعِكاس بِشقّيه التّداولي والدّلالي. أمّا عن مِعْيارِ الرّتبة وانطلاقاً مِنه، تُرْجَعُ اللّغات إلى زُمَر حسب الخصائص التركيبيّة، للتقاليب الممكِنة الّتي يمكِن أن تُحدثها أركان العبارة اللّغوية البسيطة، وهو ما يُشكّل معياريتها. وقد عُبّرَ عنهُ في أدبيات النّحو الوظيفي بـ: "تقلّبات الوظائف"؛ أي اختلاف رتبة الفعل والفاعل والمفعول، حسبَ المكوّن الموجّه الّذي تحتكم إليه بِنية العبارة الّتي تنتسب إلى زمرة معيّنة. وانطلاقاً مِن هذا المِعيار، أُرجعت اللّغات إلى زُمَرٍ، أهمّها تلكَ الّتي تقدّم الفعل واللّغات الّتي تؤخّره، واللّغات الّتي تقدّم الفاعل على الفعل والمفعول. وهذا التنامط الرّتبي بيْنَ اللّغات وفْقاً لترتيب المكوّنات قد يُخرِجُ لغةً ما مِن فصيلتها السّلاليّة ويُدْرِجُها في فصيلةٍ مُعيّنة. أمّا عَنِ المعيار الثّاني، وهو مِعْيَارُ التّغليب، فقد ركزّ المتوكّل فيه على "المستويات" أفضى الانطلاقُ مِنه كوْنُ هذا المِعيار اعتُمِدَ فيه مدى تغليب اللّغات للتّداول على الدّلالة أو العكس، إلى إقامة متواليّة نمطيّةٍ تستند إلى قُطْبَيْنِ اثْنَيْن: لغات موجّهة تداوُلِياً ... لغات موجّهة دلالِياً .

تتمتّع لغات الصِنْف الأوّل بأنّها تُغلّب المستويْن التداوُلِيَيْن؛ البلاغي والعِلاقِي على المستوى التمثيلي، في حين تتميّز لغات الصّنف الثّاني عكسَ هذِه السّمة؛ أي بتغليبِ المستوى التمثيلي على المستَوَيَيْنِ التداوُلِيَيْنِ . أمّا عن المعيارِ الأخير الّذي اقترحه المتوكّل معيار الانعكاس وهُوَ المبدأ الضّابط لنقل البِنْية التحتية، للخطاب بشقّيها التّداولي والدّلالي، إلى بِنْيَة صرفية - تركيبيّة، وبِنْية فونولوجيّة؛ فالانعكاسُ التّداوليّ ما هو إلاّ خصائص تداوليّة تنعكس في البِنْيَتَيْنِ صرفية - تركيبيّة، والفونولوجيّة ويكون تحقّقها

في سمات إنجازية ووجهية وإحالية، ووظائف تداولية وبلاغية. أمّا الانعكاس الدّلالي فهو خصائص دلالية "محمول وحدود"؛ أي موضوعات ولواحِق، تَنعكِسُ في البِنْيَتَيْنِ صرفية - تركيبيّة، والفونولوجيّة، وتحمِل وظائف دلالية بالنّظر إلى دوْرِها في الواقعة الدّال عليْها المحْمول، وسمات تؤطّر هذا المحمول مِن حيثُ الجِهة ومِن حيث الزّمن .

خـاتمة:

ختاما يمكن القول إنّ أحمد المتوكّل استطاعَ من خلالِ أطروحةِ التنميطِ أن يثبت بأنّ تبايُن اللّغات والخطاباتِ راجعٌ إلى الاختلافِ في تشغيلِ قوالب نموذج مُستعملي اللّغة، وبالخصوص إلى الاختلافِ في تغليبِ بعضها على بعضٍ، حيث اقترحَ إدراجَ بعض المعاييرِ في مشروع تنميطٍ عام بناهُ على نموذج مُستعملي اللّغة، ليتسنّى لهُ وضع ما اصطلح عليهِ بـ "ميتانظرية " تُمكّن مِنَ التمثيلِ للملكة اللّسانية العامّة.

ـــــــــــ إحالات البحث ـــــــــــ

1. يُنظر، قضايا إبستيمولوجية في اللسانيات، حافظ إسماعيلي علوي، محمد املاخ منشورات الاختلاف ،ط1، 2009.ص:26.
2. للتفصيل أكثر، يُنْظر: نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، يحي بعيطيش، أطروحة دكتوراه دولة في اللسانيات الوظيفية الحديثة، سنة2005/2006-، ص:35،75.
3. * سِمُون دك : لسانيّ هولندي صاحب النّموذج النّواة في نظرية النّحو الوظيفي ، و له العديد مِن الأطروحات اللّسانية الّتي سعى مِن خلالها لبناء نموذجٍ مثال يُحتكم إليه لبناء جهاز مفاهيمي يساعد على تحقيق القدرة التواصلية بين المتخاطبين .
4. * فيلام مثيسيوس؛ [1882-1945]vilem mathesius]: عالمٌ ألسني تشيكي ، أسّس بمعيّة معاونيه نادي براغ اللساني ، ثمّ شغل منصب أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة كارولين الأمريكية. وفي سنة 1911 نشر نداءه الأوّل لمنهج جديد غير تاريخي لدراسة اللّغة بعنوان "حول كونية الظواهر اللّغوية " on the potentiality of the phenomena of language. " و من أهمّ الأبحاث الّتي قامَ بها ، استعمال الدّراسة الوظيفيّة للتّمييز بيْنَ النّحو و الأسلوبيّة ، و مِن إسْهاماتِه الّتي نالت شهرة كبيرة في اللّسانيات ، تمييزُه بين مفهومي "الموضوع" و "الخبر" ، و تطويرُه لمنظور الجملة الوظيفي/. يُنظر: اللّسانيات؛ النشأة و التطوّر، أحمد مومن ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، ط2-2005، ص:139.
5. *رؤية ماتيسيوس في اختيارِه منهج السانكرونيا كدعامةٍ أساسِيةٍ يُبْنى عليها منهج براغ ؛ كانَ مُعارضةً واضِحةً لمدرسة النّحاة الجدد ، و ذلك لِتَبنّيهم موقِفاً منهجياً مفادُه أنّ المنْهج الوحيد في البحث اللّساني هوَ المْنهج التّاريخي. يُنظر، النّظريات اللّسانية الكبرى مِن النّحو المقارن إلى الذّرائعيّة، ص:190.
6. يُنظر ، المرجع السابق ، ص: 188،192.

7. النّظريات اللّسانية الكبرى مِن النّحو المقارن إلى الذّرائعيّة ، ص:227.
8. مدراس اللّسانِيات التّسابق والتطوّر ، جفري سامسون ، ترجمة: محمد زياد كبة ، جامعة الملك سعود ،ط1، 1997،ص:105،106.
9. اللّسانيات؛ النشأة و التطوّر ، أحمد مومن ، ص: 141.
10. *: مِن أهمّ التّطورات الّتي توصّلت إليها حقله براغ في هذا التحليل : "نظرية العلاج" في التبادلات الصّوتية ، و مفهوم "النّتاج الوظيفي " في التقابل الصّوتي ، للتفصيل أكثر يُنظر : مدراس اللّسانِيات التّسابق و التطوّر ، ص :125،127.
11. المرجع السابق: ، ص: 143.
12. ينظر ، المرجع نفسه، ص:122.
13. تبلورت هذه الأرآء ضمن الأسس الأولى لصواتة بْراغ ؛ مِن خلال الأطروحة الثانية الّتي تتعلّق بالجانب الصّوتي للّغة ، على ضرورة وجود تميّيز بيْن الصّوت كواقعة فيزيائيّة موضوعيّة، و الصّوت كتمثيل ، و الصّوت كعنصر مِنْ عناصِر النّسق الوظيفي ، يُنْظَرْ : النّظريات اللّسانية الكبرى مِن النّحو المقارن إلى الذّرائعيّة ، ص: 195.
14. يٌنظر ، دروس في المدارس اللّسانية الحديثة ؛ التنظير المنهج و الإجراء ، شفيقة علوي ، كنوز الحكمة ، الأبيار-الجزائر ،2013، ص:24،25.
15. استثنيْنا الحديث عن نظرية البراكمانتاكس، و نظرية التركيبات الوظيفية في الموجّهات الوظيفية ،لأنها أخذت منحى توليدي تحويلي على الرّغم من أنها ركزت على العنصر التّداولي ، و ركزنا على النّظريات المذكورة آنفاً لأنها عدّت مراحل مهمّة في بزوغ و نشوء المقترح الوظيفي عند سيمون ديكْ.
16. البعد الأمثولي : يقصد به ماتيسيوس؛ حين تصبح البنية هي الطّريقة الّتي تحققت بها الاختيارات النّسقية ، ينظر: النّظريات اللّسانية الكبرى مِن النّحو المقارن إلى الذّرائعيّة ، ص:229.
17. نشيرُ على سبيل الإيضاح كي لا تختلط المفاهيم :أنّ نظرية "التركيب الوظيفي" ليست هي نظرية " التركيبات اللّغوية" الّتي أتى لها "كونو" حيث تعدّ أحد حقول اللّسانيات الوظيفية في تحليلها للبِنْيات التّركيبّة على أساسِ وظائفها التّبليغيّة.
18. ينظر ، اللسانيات الوظيفية ؛مدخل نظري ، ص: 126،136.
19. ينظر ، المصدر السابق ،ص: 137،139.
20. الوظائف التّداولية في اللّغة العربية ، أحمد المتوكّل ، دار الثقافة ،الدار البيضاء –المغرب ، ط1،1985،ص:09.
21. ينطلق بعض الباحثينَ أثناء قراءاتهم لمشروع أحمد المتوكل الوظيفي ، بإطلاق مصطلح ["البرْنامج" الوظيفي] في مرحلة الصّياغة الأوّلية، وهذا خطأ معرفيّ ، لأنّ مفهوم "البرنامج" في النّسق اللساني يختلف مدلوله مع مفهوم النّظرية ، كونهُ تصميم تجريدي تتوقّف مهامه عند معالجة قضايا محدودة في إطار مخصّص ؛ يُمَثّل له في نظرية النّحو التوليدي التّحويلي بالبرنامج الأدْنوي، ونحن نعلم أنّه ما يكون وظيفياً لا يقبل أن يكون توليدياً تحويلياً.
22. يُنْظَرْ ، أسئلة اللّغة أسئلة اللّسانيات ،، حافظ اسماعيلي علوي، وليد أحمد العناتي ، منشورات الاختلاف ،ط،2009.1 ص: 45،46.

23. يُنْظَرْ، نظرية النّحو الوظيفي ؛ الأسس والنماذج و المفاهيم ، محمد حسن مليطان ، منشورات الاختلاف ،ط1، 2014، ص:15.
24. نظرية النّحو الوظيفي ؛ الأسس والنماذج و المفاهيم ، ص:15.
25. أسئلة اللّغة أسئلة اللّسانيات ، ص: 46.
26. ينظر ، اللّسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ؛ دراسة تحليلية نقدية في قضايا التّلقي و إشكالاته،حافظ إسماعيلي علوي ، دار الكتاب الحديث ، لبنان ، ط1، 2009، ص: 348.
27. نظرية النّحو الوظيفي ؛ الأسس والنماذج و المفاهيم ، ص:146.
28. المرجع السابق ، ص: 19.
29. ينظر : اللّسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ،ص:346.
30. المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي القديم.الأصول و الامتداد ،أحمد المتوكل، دار الآمان-الرباط، ط1، 2004، ص:53.
31. نظرية النّحو الوظيفي ؛ الأسس والنماذج و المفاهيم ، ص:19.
32. المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي القديم.الأصول و الامتداد ، ص:68.
33. الوظيفيّة بيْنَ الكليّة و النمطيّة ، أحمد المتوكّل، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 2003 ص:149.
34. يُنظر، المصدر نفسه ، ص:152.
35. يُنظر، المصدر السابق ، ص: 149،165.
36. يُنظر، المصدر السابق ، ص: 154،155.
37. يُنْظر، الخطاب الموسّط ؛ نحو مقاربة وظيفية موحّدة لتحليل النّصوص و الترجمة و تعليم اللّغات،أحمد المتوكّل منشورات الاختلاف - الجزائر ، ط1، 2011. ص، 47،48.
38. الوظيفيّة بيْنَ الكليّة و النمطيّة ، ص: 168.
39. يُنْظر ، نظرية النّحو الوظيفي ؛ الأسس والنماذج و المفاهيم ، ص 55، و يُنْظر : الخطاب الموسّط ، ص: 49،54.

قائمة المصادروالمراجع

1- أحمد المتوكّل :

- الوظائف التداوليّة في اللّغة العربيّة ، دار الثقافة للنشر و التوزيع- الدار البيضاء/ المغرب ،ط1، 1985.
- الوظيفيّة بين الكليّة و النّمطيّة ، دار الأمان، الرباط-المغرب،ط2003،1.
- المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي؛ الأصول و الامتداد ، دار الأمان ، الرباط-المغرب،ط2006،1.
- اللسانيات الوظيفية ؛ مدخل نظري، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت- لبنان ،ط2010،1.
- الخطاب الموسّط ؛ نحو مقاربة موحّدة لتحليل النصوص و الترجمة و تعليم اللغات ، منشورات الاختلاف الجزائر ، ط2011،1.

2- أحمد مومن :

- اللسانيات ؛ النشأة و التطوّر ، ديوان المطبوعات الجامعية،ط2، 2005.

3- **جفري سامسون:**

- اللسانيات ؛ التسابق و التطوّر ، ترجمة : محمد زياد كبة ،جامعة الملك سعود ، ط1997،1.

4- **حافظ إسماعيلي علوي:**

- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ؛ دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي و إشكالاته ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت- لبنان ،ط2009،1.
- قضايا إبستيمولوجية في اللسانيات ، منشورات الاختلاف ،الجزائر، ط1، 2009
- أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط2009،1.

5- **محمد الحسين مليطان:**

- نظرية النحو الوظيفي ؛ الأسس والنماذج والمفاهيم،منشورات الاختلاف-الجزائر،ط2014،1.

6- **ماري آن بافو:**

- النظريات اللسانية الكُبرى مِن النحو المُقارن إلى الذرائعية ،ترجمة : محمد الراضي ، المنظمة العربية للترجمة ، الحمراء-بيروت .لبنان،ط1، 2012.

7- **شفيقة علوي :**

- دروس في المدارس اللّسانية الحديثة ؛ التنظير المنهج و الإجراء ، كنوز الحكمة ، الأبيار- الجزائر،2013
- **المخطوطات :**
- **يحي بعيطيش :** نحو نظرية وظيفية للنحو العربي ، أطروحة دكتوراه دولة في اللسانيات الوظيفية الحديثة ، سنة2006/2005.